

الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي

الدكتور خالد عمر يسير*

الملخص

يتناول البحث الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي، ويبيّن مفهومها لغة واصطلاحاً، ويتعرّض إلى دوافع الأسطورة لدى الشاعر: الدوافع الذاتية وهي ذات صلة باهتمامات الشاعر والدوافع الفنيّة، وهي ذات صلة بطبيعة الشعر.

ويتناول أيضاً توظيف الأسطورة في شعره، فقد وظّفها البياتي توظيفاً فكرياً لخدمة أغراض سياسية واجتماعية، وللتعبير عن قلق الإنسان وخوفه ومعاناته، وتوظيفاً جمالياً لإغناء النص الشعري فنياً، ولإبراز أبعاد جمالية فيه ذات صلة بالتكثيف والإيجاز، وبأسطورة الواقع، وذات صلة بإعادة الأسطورة إلى أرضها ثانية.

كلمات مفتاحية: مفهوم الأسطورة، توظيف الأسطورة، الأسطورة والقارئ، التناص.

المقدمة:

يُعدُّ البياتي واحداً من الشعراء الرواد الذين يمثّلون المدرسة الشعرية الجديدة. لقد غمس روحه في قضايا وطنه، وتكوّن لديه إحساس عميق بيزيف الحضارة - مدينة، وإنساناً، وسلطة -، ولجأ في تعبيره عن ذلك إلى وسائل فنية جديدة: القناع، والشخصية التراثية، والمونولوج، والأسطورة: «هذا وغيره قادي إلى إيجاد الأسلوب الشعري الجديد الذي أعبر به، لقد حاولت أن أوفق بين المتناهي واللامتناهي، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلّب هذا مني معاناة طويلة في البحث عن الأفتعة الفنيّة، ولقد وجدت هذه الأفتعة في التاريخ، والرمز، والأسطورة»^١ وقد أولاه اهتماماً كبيراً، وراح يتتبعها في منابعها المتنوّعة - بابلية، ومصرية، وعربية، وغير ذلك - حتى أصبحت جزءاً من وعيه الفكري، وبنية راسخة في نسيج شعره: أسطورة أعيش بين عالم يموت / وعالم يولد من جديد^٢

والقارئ لشعره يلحظ بوضوح ظلالاً أسطورية حتى في أشعاره التي تخلو من الأسطورة.

* - أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، سوريا.

تاريخ الوصول: ١٤/١١/١٣٩١هـ.ش = ٢٠١٣/٠٢/٠٢م تاريخ القبول: ٠٨/٠٣/١٣٩٢هـ.ش = ٢٩/٠٥/٢٠١٣م

^١ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢، ص ٣٦.

^٢ المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٨-٣٧٩.

الأسطورة موضوع دخل أدبنا العربي الحديث شعرا ونقدا، وبدأت العناية بها منذ منتصف القرن الماضي -تقريبا-، وقد تناولتها دراسات كثيرة كما فعل د. عز الدين إسماعيل في كتابه "الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية"، ود. أنس داود في كتابه "الأسطورة في الشعر العربي الحديث"، ود. يوسف حلاوي في كتابه "الأسطورة في الشعر العربي المعاصر" ود. سعد الدين كليب في رسالة أعدّها لنيل درجة الماجستير: "الأسطورة والرمز في الشعر المعاصر في سورية" وغيرها، ولم تتطرق هذه المؤلفات إلى الأسطورة في شعر البياتي.

أما الدراسات التي تعرضت لشعره، فنذكر منها دراسة الأستاذ طراد الكبيسي: "مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي" التي خصصت لدراسة الأسطورة في شعره، واتجهت اتجاهاً تاريخياً وفلسفياً، ودراسة الباحثة ريتا عوض في كتابها "أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث" التي تناولت فيها أسطورة واحدة فقط هي أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، وتعرضت لاستخدام البياتي لها، أما دراسة د. محسن اطيّمش في كتابه "دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر" فقد تناولت الأسطورة من حيث هي ظاهرة جديدة في الشعر العراقي الحديث، وهناك دراسات أخرى.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من حيث إنها تناولت الأسطورة في ديوان البياتي، من زوايا مختلفة، ومن حيث إنها تناولت توظيفه لها، ثمّ إنّها تعبير عن رأي الباحث في أهمية الأسطورة في ديوانه، إنّها محاولة تلقي ضوءاً جديداً ينضمّ إلى أضواء أخرى سلّطت على شعره ولا تزال.

قام البحث على دراسة النص الشعري: قراءة، وتحليلاً، وتدوقاً بغية استجلاء توظيف الأسطورة فيه، وجمالياته، واستفاد من المنهج التاريخي حين تتبّع أحاديث الشاعر النثرية، والتطور الذي أصاب استخدامه للأسطورة، ومن المنهج النفسي حين استفاد من انعكاس سيرة البياتي على شعره.

تعريف الأسطورة:

يقول صاحب اللسان في مادة /سطر/: «السطر، والسطرُ: الصّف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها... والأساطير: الأباطيل، والأساطير: أحاديث لا نظام لها، واحدها إسطار، وإسطارة بالكسر، وأسطير، وأسطيرة، وأسطور، وأسطورة بالضم»^١.

ولا يختلف الفيروز آبادي عن متقدّمه في شرح مادّة «سطر»، إذ يرى أنّ السطر هو: «الصف من الشيء كالكتاب والشجر وغيره. جمع أسطر وسُطُور و أسطار. حجج أساطير.....والأساطير

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ٢٠٠٧.

الأحاديث لا نظام لها جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور وبالماء في الكل، سطرّ تسطيرا ألف...»^١.

يُجمع هذان المعجمان على معنيين: الأول هو الصف من الشيء، وهو المعنى الطبيعي والأولي لمادة -سطر- تطور مع مرور الزمن إلى المعنى الثاني، وهو الأباطيل والأحاديث العجيبة التي لا نظام لها. ويعتقد أنّ التعريف الثاني الذي اتفقت عليه هذه المعاجم -وربما غيرها- قد وضع في اعتباره مفهوم الإله الواحد في الإسلام حينما أراد أن يضع حداً للأسطورة؛ فذكرُ الآلهة فيها وتعددتها جعل المسلمين يسمونها بالأباطيل، وجعلهم يحجمون عن ترجمتها.

ووصفُ الأساطير بالأباطيل أمرٌ لا يتوافق وطبيعة أصحابها ومبتكريها الذين لم يريدوا بها باطلاً، ثمّ إنّها تمثل مرحلة فكرية في حياة البشرية، مرحلة يعبرُ فيها الإنسان عن علاقته بالعالم، وعن تفسيره لما يجري حوله، وعن رؤيته له. وهذا ما ذهب إليه جيمس فرايزر حين قال: «نستطيع أن نحدد معنى الميثولوجيا بأنها فلسفة الإنسان البدائي»، وهي «وثائق عن التفكير الإنساني، وهو لا يزال في حالة الجنين»^٢.

وينظر إليها آخرون على أنّها تمزج بين الواقع والخيال، وهذا ما ذهب إليه صاحبنا كتاب "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، هي «قصة خرافية، يسودها الخيال، وتبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حيّة ذات شخصيّة ممتازة، وينبني عليها الأدب الشعبي»^٣. وهذا ما ذهب إليه د. أنس داود، وجبّور عبدالنور اللذان ينظران إلى الأسطورة على أنّها مزج الواقع بالخيال ويزيد الرواة فيها مع مرور الزمن، فتصبح غنيّة بالأخيلة والأحداث والعقد^٤.

ومن الباحثين من يُبرز فيها الجانب الديني مثلما فعل ميرسيا إيلباد حين قال: «تروي الأسطورة تاريخاً مقدّساً، وتخبر عن حدث وقع في الزمن الأوّل زمن "البدائيات" العجيب، تذكر كيف خرج واقع ما إلى حيّز الوجود بفضل أعمال باهرة قامت بها كائنات خارقة عظيمة سواء كان ذلك الواقع كلياً

^١ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ٢، ص ٤٩.

^٢ فرايزر، جيمس، أساطير في أصل النار: ترجمة يوسف ثلب الشام، ص ٦٥.

^٣ وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٣٢.

^٤ ينظر: داود، أنس، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص ١٩.

وينظر: عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، ص ١٩.

مثل: الكون، أو جانباً منه، كأن يكون جزيرة أقام فيها الناس، أو نوعاً من النبات، أو سلوكاً إنسانياً، أو مؤسسة اجتماعية»^١.

ومنهم من يولي اهتمامه إلى الجانب الخيالي فيها: إن «مفهوم الأسطورة يشمل كل ما ليس واقعياً، أي كل ما لا يصدقه العقل، فكل قصة تعتمد على أسس غير علمية، لا يكون ثمة شك في أنها نتاج لخيال أسطوري»^٢.

ويُنظر إليها في المصطلح النقدي على أنها «سرد قصصي لا يمكن إسناده إلى مؤلف معين، يتضمّن بعض المواد التاريخية إلى جانب موادّ خرافية شعبية ألّفها الناس منذ القدم. مثال ذلك قصص الزير سالم وعنترة»^٣. وعلى أّمها وسيلة تدعّم الرؤيا يلجأ إليها المبدع في سعيه نحو خلق مدينته الفاضلة، ويريد من خلالها أن يصل الماضي بالحاضر، فالتراث الإنساني ضروري، وربما لا بد منه لربط ماضي الإنسان بحاضره، ذلك أنّ الحضارة الإنسانية سلسلة متتابعة ومتكاملة من صراع الإنسان مع الحياة، ويقدر ما نُنظر إليها على أنها وحدة لا تتجزأ بقدر ما نكون قد نجحنا في فهمها وسير أغوارها وتجاوز عقباتها. وعميق هذه النظرة طراد الكبيسي، الذي يرى أنّه «عندما يُوصَل الماضي بالحاضر، والأسطورة بالحقيقة، والناقص بالمثال، وتتألف أجزاء الكون في وحدة الوجود الإنساني الأعنى، حينئذ تولد المعجزة، إنّه يجري بفهم إلى الحياة، عجيب... مثلما يجري كلام النبيين ودم الشهداء»^٤.

دوافع البياتي إلى الأسطورة:

أ- دوافع ذاتية:

يرى بعض النقاد أنّ غنى عالم البياتي الأسطوري والمعرفي غير متناهٍ، ويصعب أن نرى له مثيلاً في الشعر العربي - إلا نادراً - مثل المعري في عصره، فهو يضرب في جذور حضارات عريقة ومتعددة. وإنه يبدو من أكثر الشعراء العرب التصاقاً بالأسطورة التي غدت جزءاً بارزاً في بناء قسم كبير من شعره^٥، وربما كان لمنفاه ولغربته التي مات فيها دور في لجوئه إلى الأسطورة، فهو يرى أنّ «النفسي

^١ إلبلياد، ميرسيا، ملامح من الأسطورة: ترجمة حبيب كاسوحة، ص ١١.

^٢ زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ٢٢٠.

^٣ وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب، ص ٣٣.

ويُنظر: داود، أنس، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص ١٩.

^٤ ينظر: الكبيسي، طراد، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي، ص ٣٢.

^٥ المرجع السابق، ص ٥.

^٦ ينظر: الكبيسي، طراد، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي، ص ٣٣.

والغربة إذا ما طال بهما الأمد قد يُلقيان بالفئان في رحاب أرض خرافية، وقد تستحيل العودة منها أبداً^١، وكأنه كان يتحدث عن نفسه ويتنبأ بما سيحصل لها في المستقبل، وقد صدقت نبوءته؛ لأنَّ الأسطورة ظلَّت ركنا بارزا في بنائه الشعري، وقضى نخبه في الغربة في دمشق دون أن يحقق حلم العودة إلى وطنه.

ورأى البيّاتي الأسطورة - ولاسيما أساطير الموت والانبعاث - معادلا موضوعيا لما عاناه وهو صغير: «ولكن الطفل الذي كنته، والذي انحدر من أعماق قرية فقيرة حُكِم عليها بالصمت منذ آلاف السنوات... فالحياة التي عاشها هذا الطفل كانت أشبه بالموت نفسه، أو بأطلال دارسة مهجورة ولكنّها بلا أساطير. كنّا نعاني الموت و ننتفّسه، وكانت المقبرة قبلنا، فلا يمرُّ يوم إلاّ ونرى الموتى الذين يُشيعون إلى متواهم الأخير... فالموت موت الإنسان والحيوان كان أمرا مألوفا لدينا. لقد كان الموت يتربّص بنا في كل مكان»^٢. تعلقّ الباحثة ريتا عوض على تأثير هذه المرحلة على شعر البيّاتي قائلة: «استطاع البيّاتي في هذه المرحلة بالرمز والأسطورة أن يوحد بين تجربته الذاتية الخاصة وبين التجربة الإنسانية العامّة التي تسكن لا وعيه، وكانت قضيتّه الأساسيّة هي الفقر ومواجهة الموت في الريف العراقي حيث عاش طفلا، فالحياة التي عاشها هذا الطفل «البيّاتي» أشبه بالموت نفسه»^٣.

لقد وجد البيّاتي في الأسطورة ملاذا له، يحمّلها همومه وأحلامه، ويغني علمه الفكري بها، وراح يبحث فيها عن بطل أسطوري «يجوّل هذا القشّ والطين المقدّس بجرعة من يده إلى لهب... إلى ثورة... بل إنني أحلم وأنا أبحث أن يتحوّل هذا الزحام الهائل نفسه إلى هذا البطل الأسطوري - التاريخي»^٤. هذا اللمب الأسطوري والثورة المشتعلة في داخله، وإحساسه المرير بزيف المدينة وزيف ساكنيها الذين استعاروا أزياء من كل عصر حتى فقدوا شخصيتهم الحقيقية.

ذلك كله دفع شاعرنا إلى البحث عن مدن العشق، والاستعانة بالمدائن الأسطورية وأبطالها للتخلص من زيف مدننا المعاصرة، ولتحميلها أفكاره ومشاعره، أو لتكون بين وسائل عدّة تنقلنا إلى عالمه الشعري الذي استطاع البيّاتي من خلاله أن يؤثّر فينا.

ب- دوافع فنيّة:

لقد تأثّر معظم شعرائنا العرب بأمثالهم من الغربيين، ولاسيما ت، س، إليوت، الذين تواصلوا شعريا مع التراث الفكري الإنساني تواصلًا موسّعًا وعميقًا، فبرز في شعرهم في صور متعددة - القناع،

١: اطيمش، محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، ص ١٤٤، و ١٤٥.

^١ البيّاتي عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البيّاتي، ج ٢، ص ٢٣.

^٢ نفس المصدر، ص ٨٢، و ٨٣.

^٣ عوض، ريتا، أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث: ص ١٧٥.

^٤ البيّاتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البيّاتي، ج ٢، ص ٥٠.

والأسطورة، والمنولوج، وغير ذلك -، فحذا شعراؤنا حذوهم بغية إكساب الشعر العربي الحديث أبعادا إنسانية وسمات فنية جديدة، ومن هؤلاء الشعراء عبدالوهاب البياتي الذي يرى أن «المعاناة والصمت والموت والثورة المضادة التي شملت العالم، والرحيل المستمر من منفى إلى منفى، وموت الناثر العظيم جيفارا... هذا وغيره قادي إلى إيجاد الأسلوب الشعري الجديد الذي أعبر به، لقد حاولت أن أوفق بين ما يموت وما لا يموت، بين المتناهي واللامتناهي، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلب هذا مني معاناة طويلة في البحث عن الأفعنة الفنيّة. ولقد وجدت هذه الأفعنة في التاريخ والرمز والأسطورة»^١.

ويولي الشاعر الأسطورة أهميّة كبيرة في الشعر في قوله: «إنّ الرمز والأسطورة والقناع أهم أقانيم القصيدة الحديثة، وبدونهم تجوع وتعري، وتتحول إلى مشروع أو هيكل لجنّة ميّنة»^٢، ويبلور الشاعر هذا الموقف من الأسطورة ويزيد عليه بعد أكثر من عقدين من الزمن حين يقول: إن «استخدام الأسطورة ضرورة لبناء معمار القصيدة الحديثة، وهي محاولة إبداعية لتجنب القصيدة الوقوع في المباشرة والغنائية التي تكاد تطغى على الكثير* من شعرنا العربي الحديث، وهذا الاستخدام بالنسبة لي هو نتيجة من نتائج تطوري الفكري والثقافي. فأنا باحث دؤوب عن ينابيع الشمس. وقد اعتمد شعري منذ بدايته على المغامرة الوجودية واللغوية والأسطورية، لذلك ابتعد عن التقريرية والمباشرة والثرثرة»^٣، فالمناقفة مع الغرب على المستوى الشعري أعطت شعرنا العربي الحديث ملامح جديدة طوّرتّه، وأغننته، وتفاوتت الشعراء في استفادتهم من ذلك تفاوتاً بيناً، وربما كان البياتي من أكثرهم استفادة منها، ومن أكثرهم تطورا لشعره، محتلا بذلك مكانة بارزة في الريادة من جهة وفي التميّز من جهة أخرى.

توظيف الأسطورة :

تتنوّع نظرة الباحثين إلى وظيفة الأسطورة، فبعضهم يعزو إليها دورا حضاريا، فقد درس بروتسلاف مالمينوفسكي الأسطورة من حيث وظيفتها الحضارية، فقال: «إنها تدعم التقاليد الاجتماعية، وتضفي عليها قيمة كبرى ومكانة عليا بإرجاعها إلى حقيقة ماورائية سامية، ورأى أن الأسطورة ركن أساسي من أركان الحضارة الإنسانية، تنظم المعتقدات وتعززها، وتصون المبادئ

^١ البياتي، عبدالوهاب، ديوان عبدالوهاب البياتي: ج ٢، ص ٣٦ و ٣٧.

^٢ اطيمش، محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، ص ١٢١.

* الصواب: كثير

^٣ القعود، عبد الرحمن محمد، الإهام في شعر الحدائة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل، ص ٥٨.

لأخلاقية وتقويها، وتضمن فعالية الطقوس وتنطوي على قوانين عملية لحماية الإنسان^١. هذا المنظور الحضاري الديني يؤكد ميرسيا إيلباد في كتابه "ملامح الأسطورة" في قوله: «إنها تعبّر عن المعتقدات والشرائع، وتبرز شأنها، تصون المبادئ الأخلاقية وتفرض العمل بها، تكفل فعالية الاحتفالات الطقسية، وتقدم القواعد العملية المتصلة بشؤون الحياة اليومية»^٢.

ويرى هذا الباحث وظيفة أخرى أساسية: «تتمثل في الكشف عن النماذج المثالية لكل الطقوس ولكل الفعاليات الإنسانية ذات الدلالة»^٣، ويقوم النموذج - على مستوى الفعل والشخصية - بدور هام في الأدب؛ لأنه يمثل القدوة التي تتبع في الحياة.

وينظر ريتشارد تشيس في كتابه "البحث عن الأسطورة" في وظيفتها، فيرى أنها تشترك مع الشعر في الوظيفة التطهيرية^٤، ويضيف يونغ إلى جانب الوظيفة التطهيرية وظيفة أخرى معرفية: «بل وظيفتها إعطاء معرفة: الأحلام تعطينا معرفة بأنفسنا»^٥.

يُعدُّ استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أحرأ المواقف الثورية فيه وأبعدها تأثيراً، ففي ذلك استعادة للرموز القديمة واستخدام لها في التعبير عن أوضاع الإنسان العربي المعاصر، وارتفاع بما إلى أعلى مقام وتحويل للتاريخ إلى لون من الأسطورة؛ فهي تصل بين الإنسان والطبيعة وبين حركة الفصول وتناوب الخصب والجذب، وبذلك تكفل نوعاً من الشعور بالاستمرار، وتعين على تصوُّر واضح لحركة التطور في الحياة الإنسانية.

وتُعين الشاعر أيضاً على الربط بين الماضي والحاضر، وعلى التوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية، وتنقذ القصيدة من الطابع الغنائي، وتفتح آفاقها لقبول ألوان عميقة من القوى المتصارعة. لهذه الأسباب ولغيرها راح الشاعر الحديث يبحث عنها ويعتمدها أئى وجدها، لا يعنيه في ذلك منبعها، وأخذ يحمّلها من فكره ومعاناته وتطلعاته، فهي لدى أدونيس للهدم والبناء، لهدم ما هو زائف في حياتنا المعاصرة، ولرسم النموذج البديل كما في أسطورة الفينيق، وهي لفضح زيف المدينة وأهلها، ولتعرية المجتمع وفضحه عند البياتي، وهكذا يوظفها كلُّ شاعر تبعاً لاهتمامه وتطلعاته.

^١ عوض، ريتا، أسطورة الموت والانبعث في الشعر العربي الحديث: ص ٢٠.

^٢ إيلباد، ميرسيا، ص ٢٩.

^٣ المرجع السابق، ص ١٤.

^٤ ينظر: صبحي محي الدين، النقد الأدبي الحديث بين الأسطورة والعلم، ص ١٠٦.

^٥ المصدر السابق، ص ١١٢.

أ- الوظيفة الفكرية:

عانى البياتي من العذاب والغربة -بأنواعها- والنفي معاناة هي - مهما كبرت أو صغرت - صورة من صور معاناة البشر، ومن معاناة الإنسان في وطنه، هذا الإنسان الذي يحاول عبثاً أن يتخلص «من مخلب الوحش العنيد»:

عبثاً، نحاول -أُيها الموتى- الفرار / من مخلب الوحش العنيد
من وحشة المنفى البعيد / الصخرة الصماء، للوادي، يدحرجها العبيد
«سيزيف» يبعث من حديد، من حديد / في صورة المنفى الشريد^١.

الشاعر يرمي إلى مأساة وطنه التي دفعت به إلى المنفى، وإلى اجترار العذاب والتشرد، واستخدم أسطورة سيزيف للتعبير عن صور العذاب والآلام المتجددة التي يواجهها الإنسان في عصرنا، وكأن معاناة إنسان اليوم هي امتداد لمعاناة إنسان أمس البعيد «سيزيف»، والتعبير بالفعل «نحاول»، وبالفعل يدحرجها العبيد» بصيغة الجمع يجعل من معاناة الشاعر جزءاً من معاناة الإنسان في كل مكان، فهو يعلم أن عالمهم صحارى وسدود، وأنهم عبيدٌ مستغلون، وهنا يتوحد الجزء بالكل، والخاص بالعام، وتأتي أسطورة سيزيف لتحتضن هذه المعاناة، ولتجعلها امتداداً لبحث الإنسان منذ فجر التاريخ عن ميلاد فجر يوم حديد يحمل معه خلاصه.

وتكون الأسطورة أحياناً للتعبير عن فكرة الانبعاث والتجدد التي شغلت عدة دواوين، منها: «الذي يأتي ولا يأتي، والموت في الحياة، والكتابة على الطين» والأساطير التي ترمز إليها كثيرة، منها: تموز، ولعازر، والمسيح، وأوزوريس، وعشتار، وفينيق، وغيرها، وهذه الأساطير مبنوثة في أشعاره معبرة عن فكرة الموت في الحياة وعن أفكار أخرى، ففي قصيدته «مرثية إلى أختاتون» تظهر هذه الفكرة حليلة واضحة: يا أيها المعبود / أنت الذي يعيش في الحقيقة / ممجداً مباركا قدوس / تصعد في طفولة النهار / وموته الفاجع في الكهولة / من أفق الشرق إلى الغرب على عباب بحر النور والبحور / متوجاً بزهرة اللوتس والثعبان / حياً جميلاً خالداً معبود / وعاشقاً معشوق / شمس النهار أنت، في جلالك العظيم / وضعت نيلاً في السماء، وصنعت منه أمواجاً على الجبال / تسقط والحقول / إنك في قلبي ترى مدائن الموت وأهراماتها والبحر / والسحاب / إنك لا تموت / إنك لا تفنى إلى الأبد / إنك لا تعطش في سفينة الشمس ولا تجوع / ولا يدبُ الشيب في شعرك أو تنفى إلى أصقاع / موت النور / تحترق السماء من أجلك والنيل على غدائر الأرض / وفوق صدرها الحنون / يلثم أطرافك في جنون /

^١ البياتي عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ١، ص ٢٦١.

يفيض بالسحر وبالغموض / يمنح معشوقاته الجواهر الحمراء / والنار والنجوم والأطفال / يجمع
أوجاعي إلى البحر وحزن البشر الفانين.^١

إنَّ البيَّاتي يسكب على النشيد من روحه ومن أوجاعه وأوجاع البشر الفانين، ويحيل الإله إلهاً جديداً، وعاشقاً امتلاً قلبه بحب الحق والخير والجمال، ولذا فإنَّ شاعرنا منفي من محيط الآلهة الطغاة مثل بروميثيوس -سارق النار-، ومثل أختاتون قائد أول ثورة ثقافية في التاريخ القديم، ومثل أوزوريس الذي مزَّقه الطغاة إرباً إرباً، ونثروا لحمه. فاستخدام الأسطورة -هنا- تعبير عن استمرارية الحياة ولا نهائيتها، قد تتبدل، ويجري عليها التطوير والتحوير في أثناء سيرورتها، ولكنها لا تتلاشى؛ لأنها جزء راسخ في الطبيعة وفي فكر البشر.^٢

وقد عبَّر الشاعر في ديوان "الموت في الحياة" من خلال الرمز الذاتي والجماعي عن القلق الروحي والمادّي، قلق الإنسان الباحث عن تغيير مصيره، وواقعه المر: مملكة الموت على أسوارها الحراس / يرنقّ النعاس / عيونهم، فلتفتح البوابة / وليدخل الغالب والمغلوب / فالفجر في الدروب / عمّا قريب؛ يوقظ الحراس / ويقرع الأجراس.^٣

إنَّ مملكة الموت أسطورة وردت إلينا من الحضارات القديمة، وهي عندهم في العالم السفلي، لها عالمها المختلف عن عالمنا، أما عند البيَّاتي فتتحوَّل إلى مدينة معاصرة، غلب النوم أهلها، و«تساوى الغالب والمغلوب أمام الموت والعقم واليباس، وحين جاء... الإنسان المعاصر ظلَّ عريان أمام السُّور، ولم يستطع دخول العالم، والتمتُّع بجزائره»^٤، ولكن خطوات الفجر قادمة لإيقاظهم: «والبيَّاتي يريد هنا أن يزاوج بين حقيقة الموت وحقيقة الحياة في عصرنا الراهن. فالجميع* يأخذهم الموت... الغالب والمغلوب... ولكن الفجر حين سيأتي، فلن يكون إلَّا فجر المعدِّين والمظلومين... ومع هذا التفسير المبسَّط نحسُّ بإجاءات عميقة تركها الكلمات في وجداننا، وربما يكون من الأفضل أن لا نعبّر عنها»^٥. تبدو مساحة الأمل في رؤيا البيَّاتي في المقطع الشعري واسعة، برزت من خلال «الأبواب

^١ المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٨.

^٢ ينظر الكبيسي، طراد، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البيَّاتي، ص ٤٠.

^٣ البيَّاتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البيَّاتي، ج ٢، ص ٢١٤.

^٤ صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البيَّاتي، ص ٢٥٦.

* الصواب: فجميعهم.

^٥ داوود، أحمد يوسف، لغة الشعر، ص ٣١٠.

المفتوحة، ومن الفجر الذي يملأ الدروب، و من الحراس الذين سيستيقظون، و...» ويلاحظ -هنا- أن الشاعر حوّل الواقع إلى ما يشبه الأسطورة، فهو يحدثنا عنه بلغة أسطورية واضحة. وفي ديوان "الموت في الحياة" استطاع أن يعبر عن قلق الإنسان ومعاناته، وأن يحقق فيه بعض ما كان يطمح إليه: «فمن خلال الرمز الذاتي والجماعي، ومن خلال الأسطورة والشخصيات التاريخية القديمة والمعاصرة، ومن خلال فكرة الثورة التي هي عبور من خلال الموت، ومن خلال وحدة الزمان والموت في الحب، عبرت عن سنوات الرعب والنفي والانتظار التي عاشتها الإنسانية عامة والأمة العربية خاصة، ومن خلال مرآة نفسي أنا أيضا، كما حاولت أن أنفذ وأغوص إلى أعماق التراث العربي والإنساني؛ لأجد فيه السمات الدالة والملامح والوجوه والأفئدة ذات الدلالة المتجددة؛ وقد وجدتها»^١. إنه يغوص إلى أعماق التراث الإنساني باحثا عن الرموز الأسطورية وغيرها التي تساعد في إبراز إمكانية انتصار الحياة على الموت، وتحقيق العدالة بين البشر، ففي قصيدة "النبوءة"^٢ يظهر التراث الإنساني حاضرا، فقد جمع فيها البياتي بين الأسطورة اليونانية، والمثل العربي: تأكل الحرة ثديها إذا جاعت وفي أرض الملوك الفقراء/زهرة الدفلى على جدول ماء/ تعرّى في حياء/ وأنا أكتب فوق الطين ما قال المعنى للمساء/ وأعرّي الكلمات/ وتعاويد البغايا الكاهنات/ وأرى نهر دم يصبغ مرآة وجوه الملكات/ ورحيل العربات/ في سهوب الشرق والنار وصمت الكائنات/ آه من عري سماء الكلمات/ تحتها أرقد قشًا، مومياء/ صامتًا أنتظر البعث أوف السنوات/ حاملاً موتي معي، حوَاب آفاق، بلا زاد وماء/ كلما غيّر مجراه الفرات/ رقدت في قاعه روجي مع الصلصال والعشب حصة/ آه من يجمع أشلائي التي بعثها الكاهن في كل زمان/ و مكان/.

ينص المقطع الشعري السابق مع المثل العربي المشهور: "تجوع الحرة ولا تأكل بثديها" بأسطورة "دفنة" الحورية الرائعة الجمال، التي هام بها "أبولون"، ولاحقها حتى كاد أن ينالها، فاستحالت بمعونة الإلهة شجرة غار.^٣ ويرمز الماء في الفكر الأسطوري إلى التطهير الذي يحفظ للإنسان عفته، فـ "دفنة" التي استحالت إلى زهرة على ضفاف المياه حافظت على عفتها، وعفة من أراد اغتصابها، وأعتقد أن هذه الرمزية كانت حاضرة في فكر الشاعر حين أنشأ هذا النص. يوحى فضاء القصيدة بالجوع

^١ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢، ص ٤٢.

^٢ المرجع السابق، ص ٤٢١.

^٣ ينظر: عثمان، سهيل، والأصفر، عبدالرزاق، معجم الأساطير اليونانية والرومانية، ص ٢٥٥.

^٤ ينظر: فراي، نورثروب، نظرية الأساطير في النقد الأدبي: ترجمة: حنا عبود، ص ٥٠.

والاغتصاب، وعجز الإنسان -الشاعر- عن تجاوز هذا الفضاء المرعب، ومع ذلك فهو ينتظر ألوف السنوات، ويجمع أشلاءه، ونذوره، وندوره التي بعثرها رجال الدين في العصور كلها.

وتخرج الأسطورة أحيانا عن حدودها الفردية والقطرية لتشمل الإنسان بغض النظر عن انتمائه المكاني؛ لأن «العالم الذي نعيشه اليوم عالم يكتنفه التناقض، ويعمه الاحتجاج، وتتسع فيه ثغرات الحراب، وتؤطره المدنية بهالة من القوانين والأنظمة التي تحد من حرية الإنسان وتكبّل طوقه إلى معانقة طبيعته السمحة تنشد البساطة والاطمئنان فراحت العلاقات تتدهور، وأضحى كل شيء يقاس بمعيار مادي، وأضحى الإنسان متغربا في واقعه إذ لم تعد العلاقات التي كانت تنبض بالوجدان حميمة دائمة، إنما احتواها التناقض والتذبذب، وأمسى القلق جوهر الأشياء في عالم متضاد يشكو الأرق والتبرم»^١، وكأن الأسطورة محاولة من الشاعر لاسترداد بعض الأشياء التي فقدناها، فتبدو «وكأنها لم تفقد إطلاقا، ولكن بوسعنا بذل المحاولة لوعيتها والإحساس بوجودها وأهميتها»^٢، فتصبح الرؤيا شاملة ومُتسعة ومصوّرة حالة القهر والرعب التي يعانيتها العالم في أيامنا نتيجة أعمال لا إنسانية يرتكبها الطغاة الذين يتحدث عنهم، ويرى شاعرنا نفسه جنديا يشارك البشرية في كفاحها ضدهم: قاتلتُ مع الإسكندر الأكبر في فارس لكنّي / مع المراكب -الطيور- أبحرتُ إلى زماننا هذا: معي / شهادة التطعيم والبطاقة الشخصية. / الأهمار كانت ترتدي أكفانها / رأيت «نبرودا» مع الهنود في مذابح «الأنديز» في / مطارح القارة حيث الجوع والإنجيل والمنشور في / الشوارع العارية -المسالخ- السجون / حيث المدفع -الدبابة- البيان في الإذاعة الجريدة الصفراء / يُنهي دورة الفصول / يلوي عنق الوردية، / قاتلتُ مع الإغريق في مجاهل الشرق، / وقعتُ، وأنا أمارس السحر، أسيرا، / فتعلّمتُ من الأهمار: كيف أحمل النار إلى زماننا هذا/ وأصطاد لك الفراشة الوعل -الغزال- القمر. / المنجمون احتشدوا في مدن الطفولة/ الحلاج كان بقميص الدم مصلوبا / وكان قائد«الزنج» على الفترات يُنهي لعبة الخليفة / الأبله، لكن ملوك المال والبتروول في.. «الأنديز» / حيث الجوع والإنجيل والمنشور / كانوا يقتلون باسم عجل الذهب الطغاة في كل العصور. / حامل القربان ألقى وردة في النهر / قال: اشتعلي أيتها الأهمار في القارة باسم الفقراء / حامل القربان، قال: اشتعلي أيتها القارّات.^٣

^١ علي، عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب: ص ١٩.

^٢ شتراوس، كلوديفي، الأسطورة والمعنى: ترجمة صبيح الحديدي، ص ٩.

^٣ البيّاتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البيّاتي، ج ٣، ص ٣٥٦-٣٥٨.

إنَّ معاناة البياتي جزء من معاناة البشر أينما كانوا وعذابه بعض من عذابهم؛ لذا نراه يضع يده في أيديهم لمواجهة طغاة هذا العالم، ويضمُّ صوته إلى أصوات الأحرار في كل مكان من أجل مكافحة هذا الطغيان. الأسطورة -هنا- أغنت التجربة الشعرية بما أضفت على النص من إيجاعات، وربما كان لمعاناة البشرية منذ الأزل حتى أيامنا هذه دور في مدِّ الباحث عن الكرامة والحريَّة بالطاقة والإرادة والعزيمة على إكمال دربه. وكأنَّ البياتي يريد أن يقول لنا: «إنَّ طغاة العالم الجديد مثل طغاة العالم القديم، ولكن بأقنعة ولغات وأغنيات جديدة، ولكي يسهل اكتشاف هؤلاء ينبغي أن نعرف أولئك... ذلك أن تاريخ وملامح الطغاة يكاد يكون واحدا... ولكن بصور مختلفة وأساليب متعددة... وهدف واحد هو الخروج من /دوائر الأصفار/ إلى التحقُّق الإنساني.»^١، وهنا يشكِّل تاريخ النضال ضد الاستبداد والظلم سلسلة متكاملة موغلة في القدم، فمعادلة الظالم والمظلوم، والسارق والمسروق وغيرها هي النضال ذاته من أجل قضية واحدة، هي القضاء على الظلم والظالمين، ولكن تأتي في صور متعددة. ويحدِّثنا الشاعر في قصيدة أخرى عن مدينة -لا يسمِّيها- مألها الأوغاد الذين استنفذوا طاقة أبنائها، وهؤلاء الأوغاد يذكرون الشاعر بإله المال في الميثولوجيا اليونانية:

«مامون» والدولار يدعّمه	- بإزائهما- والفكر والعدم
وصبيّة تبكي، ومركبة	يسطو على حوذيتها خدم
وأرى بغايا ينتحبن على	حب تدوس رفاتِه قدم
وعيون شحّاذ ملوثة	ودما يسيل، وباعة وجموا
من أين؟ والأمطار تحجبهم	عنّا وسقف الليل ينهدم
إنّا هجرناهم وليس لنا	في أرضهم بعث، ولا رمم ^٢

إنَّ المدينة والأوغاد -عنوان القصيدة- اللذين يحدِّثنا الشاعر عنهما غير محدَّدين؛ مما يجعل حديثه هنا متجاوزا حدود الزمان والمكان؛ لينطلق إلى رحاب البشرية جمعاء، وتأتي أسطورة /مامون/ إله المال في الميثولوجيا اليونانية لتعمِّق تجربة الشاعر، ولتزيدها غنى وشمولية، ولتؤكد أنَّ نضال الإنسان عميق في بعده الزماني، ومستمر حتى تحقيق أهدافه.

ويلاحظ - هنا - أن الأسطورة مقحمة على بناء القصيدة، ولم يستطع الشاعر أن يجعلها جزءا ملتحما في نسيجها، وهذا ينسجم مع طبيعة المرحلة الزمنية التي صدر فيها ديوان "أباريق مهشمة" عام ١٩٥٤ حين كان البياتي في مرحلة مبكرة جدا في التعامل مع الأسطورة.

^١ الكبيسي، طراد، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي، ص ٢٠.

^٢ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ١، ص ١٩٥.

ويتخذ شاعرنا الأسطورة أحيانا وسيلة لإيصال أغراضه السياسية إلى القارئ بغية تجنب مضايقات السلطة التي كان يقف في وجهها - شأنه في ذلك شأن معاصره السياب -، وإثراء تجربته السياسية، فالأسطورة رمز يجمّله آراءه في السياسة وأهلها.

إنّ المنفى الذي عاشه نتيجة الأحداث التي طغت عليها سحب سوداء في بلاده دفعه إلى استخدام أسطورة سيزيف؛ ليشير إلى حالة الاضطهاد التي يعاني منها الإنسان العربي عامة، والعراقي خاصة: عبثا نحاول أئبها الموتى الفرار / من مخلب الوحش العنيد / الصخرة الصمّاء للوادي يدحرجها العبيد / سيزيف يُبعث من جديد من جديد / في صورة المنفى الشريد.^١

يرى د. غالي شكري أنّ «الوحش هنا ليس هو القدر أو لغز الوجود، وسيزيف ليس هو البشرية الضائعة... إنّ الشاعر يرمي إلى مأساة وطنه التي دفعت به إلى النفي والتشريد والموت، بينما الوحش العنيد ما يزال يتربّع على عرش السلطة في ذلك الوطن المعذب».^٢

فقد «التزم البياتي قضية الإنسان الثائر في الوطن العربي؛ لأنّ الإنسان العربي في كل مكان يواجه مسؤولية النهوض بالحضارة العربية وبعث أمجادها بالثورة. وقد كان لقضيي فلسطين والجزائر أهمية خاصة في شعره».^٣

وفي موضع آخر تتحوّل أسطورة صلب المسيح إلى رمز سياسي، يذكرّ بقضية فلسطين، فالصليب يتحوّل إلى حدود أقيمت بين الأقطار العربيّة:

«يافا» يسوعك في القيود / عار، تمرّقه الخناجر، عبر صلبان الحدود / وعلى قبابك غيمة تبكي، / وحفّاش يطير. / يا وردة حمراء، يا مطر الربيع / قالوا وفي عينيك يحترق النهار / وتحفّ، رغم تعاسة القلب، الدموع، / قالوا: «تمتّع من شميم، / عرار نجد، يا رفيق» / فبكيّت من عاري / فما بعد العشيّة من عرار / فالباب أوصده «يهودا» والطريق / خال، وموتاك الصغار / بلا قبور، يأكلون / أكبادهم، وعلى رصيفك يهجعون.^٤

فيسوع الذي صُلب على أرض فلسطين في الماضي، يُصَلَّب مثله -الآن- آلاف البشر، ويسوع الذي تعذب وعانى يعاني مثله إنسان آخر في أيامنا هذه وعلى الأرض نفسها. يلتقي الصليب مع الحدود في أنّهما سبب معاناة الإنسان في الماضي والحاضر، لقد جعل من الصليب معادلا لآلام الإنسان

^١ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج١، ص٢٦١.

^٢ شكري، غالي، شعرنا الحديث إلى أين، ص١٥١ و١٥٢.

^٣ عوض، ريتا، أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ص١٥٥.

^٤ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج١، ص٢٨٣.

على مرّ الزمان، كما يلتقي البطلان المعذبان -ماضيا وحاضرا- في المعاناة وعلى الأرض نفسها التي كانت شاهدا على هذه الآلام البشرية، وتأتي الأسطورة -هنا- لتربط بين معاناة البشر على مرّ العصور. وهكذا يستمرّ الطغاة في طغيانهم، ويستمرّ الثوّار في ثوراتهم. ويوظف أسطورة صلب المسيح في قصيدة "العرب اللاجئون"^١ للحديث عن معاناة الفلسطيني اللاجئ بأسلوب يتّسم بالسخرية والغضب.

ب- الوظيفة الجماليّة:

يرى د. عبد الرضا علي أن جماليات الأسطورة في الشعر العربي الحديث متعددة أبرزها: التداعبات، والمونولوج الدرامي، والديالوج - المحاوره - ؛ مما يجعلها تضيي استمتعا إنسانيا على من يقرأ الشعر، ومما يضيفي جمالا على القصيدة التي تتبنى الأسطورة قدرة الشاعر على الإسقاط على الواقع المعيش، وقدرة الأسطورة على تجاوز السياق التاريخي الذي ولدت فيه إلى سياق تاريخي جديد، فهي كما يقول هانز ميرهوف: «نسق لازماني، وهي لازمانية في كونها حاضرة أبدا كتذكير دائما بالعود الأبدي للشيء نفسه»^٢.

وإن استخدام البياتي للأسطورة في شعره أمدّه بطاقات جديدة غدّته وأغنته، فصارت أكثر تكتيفا، وأكثر إيجاء دون أن يشكّل ذلك -غالبا- عبئا عليها، يقول البياتي في قصيدته "هبوط أورفيوس إلى العالم السفلي" التي برزت فيها أسطورة الموت والانبعاث: عبثا تصرخ فالليل طويل / وخطا ساعاته في مدن النمل حريق / كلّما نادتك عشّتار من القبر ومدّت يدها، / ذابّ الجليد / وانطوت في لحظة كلّ العصور / وإذا بالليل ينهار وتنهار السدود / وإذا بالميت المدرج في أكفانه يصرخ كالطفل الوليد / بعد أن باركه الكاهن بالخبز وبالماء الطهور / آه ما أوحش ليلاقي على أسوار آشور / مع الموت وأوراق الخريف / وأنا أصعد من عالمها السفلي نحو النور والفجر البعيد / ميّتا أبعث في درع الحديد / أيّها الثور الخرافي الذي فوق دخان المدن الكبرى / يطير.^٤

يريد أورفيوس إعادة حبيبته عشّتار -آلهة الخصب- إلى الحياة وهو مستعدّ للتضحية بكل شيء من أجل إعادتها، ومعروف أنّ "أورفيوس" لم يستطع إعادة عشّتار. إنّ انتقاء البياتي لهذه الأسطورة دون غيرها من الأساطير التي تتضمّن أبطالاً فائزين: «ليدلّ على مجاهدة وفجاعة تبلغ حدّ اليأس أو

^١ المرجع السابق، ص ٢٨٣.

^٢ ينظر: علي، عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، ص ٩٢ وما يليها.

^٣ اطميش، محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، ص ١٢٢

^٤ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢، ص ٤٣٠.

تكاد. اليأس من أن تبعث حضارة هذه الأمة مرةً أخرى بعد كلِّ المحاولات والتضحيات في هذا السبيل». ^١ يتساوى الشاعر مع "أورفيوس" في عمليّة البحث: "أورفيوس" يبحث عن "عشتار" والبياتي يبحث عن ميلاد إنسان جديد. شأنه في ذلك شأن الإنسان المعاصر الذي يريد إعادة حرّيته، وإعادة حقه في حياة كريمة. إن التكتيف في المقطع السابق يظهر على المستوى الفكري، فالإنسان منذ أتى إلى هذا الكون يبحث عن حرّيته، وعمّا يحافظ على كرامته، وما يعانيه في زماننا هذا سبقه إليه أجداده وآخرون كثير، وكان مسيرته -ماضياً وحاضراً- واحدة. وعلى مستوى المكان فإن العراق -الآن- المناضل من أجل العدل والكرامة هو امتداد للعراق الموغل في القدم الذي احتضن شخصيات أسطورية باحثة عما يبحث عنه الآن. إن هذا التوحّد في القصيدة على مستوى الفكر والزمان والمكان يغنيها ويمدّها بطاقات من الإيحاء والتكتيف وغيرهما، ساعدت الأسطورة في إبرازها مساعدة كبيرة.

وتعيدنا لغة الأسطورة في شعرنا العربي الحديث، وفي شعر البياتي إلى أجواء تاريخية أسطورية، يقوم التشكيل اللغوي بدور واضح في ذلك. يقول البياتي في المقطع الثاني من قصيدته "قصائد حب إلى عشتار": نبتت لي أجنحة/ وأنا أحمل من منفي إلى منفي تعاويد الملوك السحرة/ وزهور المقبره/ وعذابات الليالي الممطره/ مثل ماء النهر من تحت جسور العالم المشحون/ بالحق، تلمّست الضفاف المظلمه/ وتمزّقت وناديتك باسم الكلمه/ باحثا عن وجهك الحلو الصغير/ في عصور القتل والإرهاب والسحر وموت الآلهه/ وتمنّيتك في موتي وفي بعثي وقبّلتُ قبور/ الأولياء/ وتراب العاشق الأعظم في أعياد موت الفقراء/ ضارعا أسأل، لكنّ السماء/ مطرتُ بعد صلاتي الألف ثلجا ودماء/ ودمى عمياء من طين وأشباح نساء/ لم يرينَ الفجر في قلبي، ولا الليل/ على وجهي بكاء/ فمتى تنهل كالنجمه عشتار وتأتي مثلما/ أقبل في ذات مساء/ ملك الحب لكي يتلو على الميّت سفر الجامعه/ ويغطّي بيد الرحمة وجهي وحياتي الفاجعه/. ^٢ يلاحظ قارئ المقطع عبارات تضعنا في أجواء أسطورية: «نبتت لي أجنحة، وتعاويد الملوك السحرة، والضفاف المظلمة، وموت الآلهة» وغيرها، وهذا واضح جدا في قصائده التي تتضمن الأساطير. وهذه اللغة الأسطورية التي اهتمَّ بها البياتي برزت أيضا في قصائد ليست الأسطورة جزءا من بنائها، كما في قصيدته "ديك الجن". ^٣ التي تظهر فيها عبارات تضعنا في عوالم أسطورية: رأيتُ ديك الجن في الحديقة السريه/ يضاحج الجنّيه، تعود للأعماق، تموت في جزائر

^١ صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البياتي، ص ٣١٣، و ٣١٤.

^٢ البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢، ص ٤٣٧ و ٤٣٨.

^٣ المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٥.

المرجان،/ فالشاعر - هنا - لا يبني قصيدته من أسطورة بعينها، والإفادة الأسطورية «إنما تترع إلى إضفاء جو أسطوري أو حالة شبه أسطورية على موضوع القصيدة، إن الشاعر - هنا - يوشك أن يكون صانع أساطير أو حكايات غريبة، هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، وهو وإن لم يرق إلى هذا تمام الرقي إلا أنه استطاع أن يشعر القارئ بوجود تلك الغلالة الأسطورية في قصيدته.»^١ وغير كثير في شعره.^٢

ولا يكتفي البياتي بذلك وإنما يتجه إلى لغة الأسطورة نفسها جاعلاً منها لغة لقصائده، فتبدو ظاهرة التناص واضحة جلية فيها، وتظهر كأنها كتابة جديدة للأفكار التي وردت في الأسطورة، يقول بعد حديثه عن موت أنكيديو في قصيدته "مراثي لوركا"^٣ مخاطباً "جلجامش" على لسان صاحبة الحان: لن تجد الضوء ولا الحياه / فهذه الطبيعة الحسناء / قدّرت الموت على البشر / واستأثرت بالشعلة الحية في تعاقب الفصول /، ومن يقرأ ملحمة جلجامش سيجد صاحبة الحان وهي تمنعه من متابعة رحلته في البحث عن الخلود تقول: إلى أين تمضي يا جلجامش؟! / الحياة التي تبحث عنها لن تجدها. / فالآلهة لما خلقت البشر. / جعلت الموت لهم نصيباً. / وحبست في أيديها الحياة.^٤ إن التناص واضح بين نص الشاعر المذكور ومقطع الأسطورة، ويلاحظ في النص أيضاً التكتيف الأسطوري، فقد اجتمع فيها أربع أساطير: أسطورة "جلجامش" ولقمان، وعائشة، -عشتار-، والعنقاء، دون أن يثقل ذلك القصيدة، ويلاحظ أيضاً التنوع في مصادرها الذي أغناها فكراً وفناً.

وتتعمق علاقته بالأسطورة وتترسخ في ديوانه "الذي يأتي ولا يأتي" الصادر عام ١٩٨٢م، وما يليه من دواوين شعرية، فنظهر العوامل الأسطورية جلية فيها، وشاعرنا يذهب إلى أبعد من ذلك في تحويله الواقع المعيش إلى أسطورة، وهو - هنا - يخلق أساطيره، و«ينشئ الأسطورة الجديدة... يستطيع بما أن يرتفع بالواقعة الفردية المعاصرة إلى مستوى الواقعة الإنسانية العامة ذات الطابع الأسطوري»^٥ فكثيراً ما يمزج الأسطورة بالواقع، ويحوّل التاريخ - بأشخاصه وحوادثه ومدنه - إلى ما يشبه الأسطورة، فتتحول

^١ اطمش، محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، ص ١٤٩.

^٢ ينظر: البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٣، قصيدة «عن وضّاح اليمن والحب والموت»، التي تسيطر عليها عبارات أسطورية كثيرة ص ٢٧.

^٣ المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٤.

^٤ السوّاح، فراس، كنوز الأعماق، قراءة في ملحمة جلجامش، ص ١٨٧ و١٨٨.

^٥ إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، ١٩٧٢، ص ٢١٧.

شخصية الإسكندر الكبير، والمعري، وعمر الخيام، وغيرهم إلى أبطال أسطوريين، لا يختلفون عن غيرهم من الشخصيات الأسطورية الحقيقية.

ويعيد الأسطورة أحيانا أخرى إلى واقعها الأرضي الحقيقي الذي ولدت فيه، فيبدو التاريخ ماثلاً أمامنا كأنه جزء من حاضرنا، كما في قصيدته "أغنية" التي مطلعها «يافا يسوعك في القيود» السابقة الذكر حين أرجع قصة صلب المسيح إلى أرض فلسطين التي ولد، ونشأ، وترعرع فيها.

الخاتمة:

لقد أظهر البحث أن الأسطورة أخذت موقعا راسخا ومميزا في بناء القصيدة عند البياتي، فكان الشاعر كثير الالتصاق بها، وكان تركيزه منصباً على السمات المشتركة بينها والواقع المعيش مما أدى إلى تماهي كل منهما بالآخر في معظم قصائده، وغالبا ما كان يضيف على الواقع سمات أسطورية فيبدو شبيها بالعالم الأسطوري علما أن الأسطورة ليست جزءا منه.

وعرّف البحث الأسطورة، وتناول دوافع الشاعر الذاتية، والفنية التي دفعته إليها، وبيّن وظيفتها الفكرية، والجمالية في شعره، وطبيعة استخدامه لها، لقد بدأ استخدامه لها باستدعاء شخصية أسطورية واحدة في نصّه الشعري، ثمّ طوّر هذا الاستخدام من حيث تنوع الأساطير، وتعدّدها، وأسهم توظيفه للأسطورة في إضفاء أبعاد إنسانية على الأغراض الشعرية التي عالجها، وفي إغناء تجربته الفنية بما أمدها من إيجاء، وتكثيف، وعمق فكري، وغور في الزمان. وقد تمكّن أيضاً من إقناعنا بتجربته هذه، وبضم أصوات قرائه إلى أصوات أبطال أساطيره وثوّاره في مواجهة طغاة العالم.

قائمة المصادر والمراجع :

- ١ - إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة، ودار الثقافة، ١٩٧٢ م.
- ٢ - اطيمش، محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، الجمهورية العراقية: دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الدراسات - ٣٠١ - ١٩٨٢ م.
- ٣ - إيلباد، ميرسيا، ملامح من الأسطورة : ترجمة حبيب كاسوحة، دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥.
- ٤ - ابن منظور، لسان العرب، (د.ط)مصر: دار المعارف، (د.ت).
- ٥ - البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة، ١٩٧٩ م.
- ٦ - جبور، عبد النور، المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩.
- ٧ - حللوي، يوسف، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، ط١، بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤ م.
- ٨ - داود، أنس، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (د.ت).

- ٩- داوود، أحمد يوسف، لغة الشعر، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٠م.
- ١٠- السوّاح، فراس، كنوز الأعماق قراءة في ملحمة جلجامش، الطبعة الأولى، قبرص: سومر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.
- ١١- زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الطبعة الأولى، طرابلس: منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٧٨.
- ١٢- شتراوس، كلود ليفي، الأسطورة والمعنى، ترجمة صبحي الحديدي، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
- ١٣- شكري، غالي، شعرنا الحديث إلى أين، الطبعة الأولى، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨م.
- ١٤- صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البيّاتي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٦م.
- ١٥- صبحي، محيي الدين، النقد الأدبي الحديث بين الأسطورة والعلم، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الاشتراكية العظمى، ١٩٨٨.
- ١٦- علي، عبد الرضا، الأسطورة في شعر السيّاب، الطبعة الثانية، بيروت: دار الرائد العربي، لبنان، ١٩٨٥.
- ١٧- عوض، ريتا، أسطورة الموت والانبعث في الشعر العربي الحديث، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م.
- ١٨- فرايزر، جيمس، أساطير في أصل النار: ترجمة يوسف ثلب الشام، الطبعة الأولى، دمشق: دار الكندي للنشر والترجمة والتوزيع، ١٩٨٨.
- ١٩- فراي، نورثروب، نظرية الأساطير في النقد الأدبي: ترجمة حنا عبّود، ط١، حمص: دار المعارف، ١٩٨٧.
- ٢٠- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الثانية، مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٣م.
- ٢١- القعود، عبد الرحمن محمد، الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل، عالم المعرفة، عدد ٢٧٩، آذار ٢٠٠٢م.
- ٢٢- الكبيسي، طراد، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البيّاتي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٤م.
- ٢٣- كليب، سعد الدين، الأسطورة والرمز في الشعر المعاصر في سورية - ١٩٦٠-١٩٨٠-، رسالة ماجستير، نوقشت في جامعة حلب، ١٩٨٦م.
- ٢٤- وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت: مكتبة لبنان، ط١، ١٩٨٤.

اسطوره و کاربردهای آن در دیوان عبدالوهاب بیاتی

دکتر خالد عمر یسیر*

چکیده

این مقاله به بررسی اسطوره و کاربردهای آن در دیوان عبدالوهاب بیاتی می پردازد. مفهوم لغوی و اصطلاحی آن را بیان می کند و متعرض انگیزه های اسطوره پردازی شاعری شود که بر دو قسمند: انگیزه های درونی که درارتباط باگرایش های درونی شاعر است و انگیزه های فنی که مربوط به طبیعت خود شعر است.

تحقیق حاضر کاربرد اسطوره در شعر بیاتی را نیزمورد مطالعه قرار می دهد و برآن است که بیاتی یکبار از کاربرد اندیشگانی اسطوره درخدمت اغراض سیاسی، اجتماعی، و بیان تشویش، ترس و رنج انسان استفاده کرده است، و باردیگر نیز به کاربرد زیبایی شناختی آن برای غنابخشی به متن شعری فنی برای ابراز ابعاد زیبایی در آن نظر داشت که با الهام وپیشنهاد وایحاء و افسانهی واقعیت ارتباط دارد و به بازگشت دوباره اسطوره به جایگاه خود مربوط می شود.

کلیدواژها: مفهوم اسطوره، کاربرد اسطوره، اسطوره وخواننده، تناص

* - استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تشرین، سوریه.

تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۱۱/۱۴ ه.ش = ۲۰۱۳/۰۲/۰۲ م تاریخ پذیرش: ۱۳۹۲/۰۳/۰۸ ه.ش = ۲۰۱۳/۰۵/۲۹ م

Mythology and its Functions in Abdul Wahab Al-Bayati's Divan

By: Khaled Omar Yaseer*

Abstract:

This article deals with mythology and its functions in Abdul Wahab Al-Bayati's divan. It outlines the concept literally and functionally and touches on the motives for using mythology by this poet which are of two types: the subjective motives or are the personal orientations and inclinations of the poet and the technical motives, which are related to the nature of poetry. This article elaborates on how Al-Bayati used mythology in literature for political and social purposes and for the expression of human worries, fears and suffering. It also mention that the poet also has used this mode of expression aesthetically to enrich the poetic text and add another aesthetic dimension to his work, thus making mythology play its original basic role, which is connecting far-fetched myths to likely realities.

Keywords: Mythology, functions of Mythology, Myth and Readers, Intertextuality

*- Assistant Professor, Department of Arabic Language & Literature, Tishreen University, Syria.